**بدء الوحي**

**روي الإمام البخاري عن السيدة عائشة تصف كيفية بدء الوحي وتقول :**

**أول ما بديء به رسول الله صلي الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يري رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الي أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الي خديجة فيتزود لمثلها، حتي جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال له إقرأ : فقال ما أنا بقاريء قال فأخذني فغطني حتي بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : إقرأ : فقلت ما أنا بقاريء، فأخذني وغطني حتي بلغ مني الجهد فقال إقرأ : فقلت : ما أنا بقاريء فأخذني وغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، فرجع بها رسول الله صلي الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل علي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني، زملوني، فزملوه، حتي ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت علي نفسي، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين علي نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتي أتت به ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزي، وكان ابن عم خديجة، وكان إمرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل في العبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة يابن عم، إسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة : يابن أخي ماذا تري ؟ فأخبره رسول الله صلي الله عليه وسلم خبر ما رأي فقال له ورقة : هذا الناموس ( أي جبريل أو الوحي ) الذي نزل علي موسي ياليتني فيها جذعاً ( شاباً قوياً ) ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرنّك نصراً مؤزرا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي.**

**واختلف في الزمن الذي فتر فيه الوحي فقيل ثلاث سنوات، وقيل أقل من ذلك، والراجح ما رواه البيهقي من أن المدة كانت ستة أشهر. ثم روي البخاري عن جابر ابن عبد الله قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس علي كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت : زملوني زملوني فأنزل الله عز وجل : يا أيها المدثر قم فأنذر - الي قوله : والرحز فاهجر، فحمي الوحي وتواتر.**

**العبر والعظات :**

**حديث بدء الوحي هذا، هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته، وفهمه واليقين به هما المدخل الذي لابد منه الي اليقين بسائر ما جاء به النبي صلي الله عليه وسلم من أخبار غيبية وأوامر تشريعية ذلك أن حقيقة ( الوحي ) هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رايه وعقله، والإنسان الذي يبلغ عن ربه دون أن يغير أو ينقص أو يزيد. من أجل هذا يهتم محرفوا التشكيك بالإسلام، بمعالجة موضوع الوحي في حياته صلي الله عليه وسلم، ويبذلون جهداً فكرياً شاقاً في تكلف وتمحل من أجل التلبيس في حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام، وحديث النفس، بل وحتي الصرع أيضاً، وذلك لعلمهم بأن موضوع الوحي هو منبع اليقين عند المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد صلي الله عليه وسلم من عند الله. فلئن أتيح تشكيكهم بحقيقته، أمكن تكفيرهم بكل ما قد يتفرع عنه من عقائد وأحكام، وأمكنهم أن يمهدوا لفكرة أن كل ما دعا إليه محمد صلي الله عليه وسلم من المبادئ والأحكام التشريعية ليس إلا من تفكيره الذاتي.**

**من أجل تحقيق هذه الغاية، أخذ محترفوا الغزو الفكري، يحاولون تأويل ظاهرة الوحي وتحريفها عما يرويه لنا المؤرخون وتحدث به صحاح السنة الشريفة. وإبعادها عن حقيقتها الظاهرة وراح كل منهم يسلك الي ذلك ما يروق لخياله من فنون التصورات المتكلفة الغريبة.**

**فمن متصور بأن محمداً صلي الله عليه وسلم لم يزل يفكر.... الي أن تكونت في نفسه بطريقة الكشف التدريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء علي الوثنية، ومن مفضل علي ذلك إشاعة القول بأنه صلي الله عليه وسلم إنما تعلم القرآن ومباديء الإسلام من بحيرا الراهب، ومن قائل بأن الأمر ليس هذا ولا ذاك ولكن محمداً صلي الله عليه وسلم كان رجلاً عصبياً أو مصاباً بداء الصرع.**

**ونحن حينما ننظر الي مثل هذه التمحلات العجيبة التي لا يري العاقل مسوغاً لها إلا التهرب من الإقرار بنبوته صلي الله عليه وسلم، ندرك في جلاء ووضوح الحكمة الإلهية الباهرة من بدء نزول الوحي عليه صلي الله عليه وسلم بهذه الطريقة التي إستعرضناها الآن، في حديث الإمام البخاري.**

**لماذا رأي رسول الله جبريل بعيني رأسه لأول مرة، وقد كان بالإمكان أن يكون الوحي من وراء حجاب؟**

**لماذا قذف الله في قلبه عليه الصلاة والسلام الرعب منه والحيرة في فهم حقيقته، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله وحفظه له يقتضي أن يلقي السكينة في قلبه ويربط علي فؤاده فلا يخاف ولا يرتعد ؟**

**لماذا خشي علي نفسه أن يكون هذا الذي تمثل له في الغار آتياً من الجن، ولم يرجح علي ذلك أن يكون ملكا أميناً من عند الله ؟**

**لماذا أنفصل الوحي عنه بعد ذلك مدة طويلة، وجزع النبي صلي الله عليه وسلم بسبب ذلك جزعاً عظيماً حتى أنه كان يحاول - كما ذكر الإمام البخاري - أن يتردي من شواهق الجبال ؟**

**هذه أسئلة طبيعية بالنسبة للشكل الذي إبتدأ به الوحي، ولدي التفكير في أجوبتها نجدها تنطوي علي حكمة باهرة، ألا وهي أن يجد المفكر الحر فيها الحقيقة الناصعة الواقية عن الوقوع في شرك محترفي الغزو الفكري والتأثر بأخيلتهم المتكلفة الباطلة.**

**لقد فوجئ محمد عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له إقرأ، حتي يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتيا داخلياً مردّه الي حديث النفس المجرد، وإنما هي إستقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات، وضم الملك إليه إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلا في كل مرة إقرأ - يعتبر تأكيداً لهذا التلقيالخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصوّر من أن الأمر لا يعدو أن يكون خيالاً داخلياً فقط.**

**ولقد داخله الخوف والرعب مما سمع ورأي، حتي أنه قطع خلوته في الغار وأسرع عائداً الي البيت يرجف فؤاده، لكي يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يكن متشوقاً للرسالة التي سيدعي الى حملها وبثها في العالم، وأن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر في باله، وإنما طرأت طروءاً مثيراً علي حياته وفوجيء بها دون أي توقع سابق.ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير الي أن تتكون في نفسه - بطريقة الكشف التدريجي المستمر - عقيدة يؤمن بالدعوة إليها!**

**ثم إن شيئا من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية، لا يستدعي الخوف والرعب وامتقاع اللون، وليس ثمة أي انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخري، وإلا لاقتضي ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف والمفاجئة المتلاحقة. وأنت خبير أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون - كل ذلك من الإنفعالات القسرية التي لاسبيل الي إصطناعها والتمثيل بها، حتي لو فرضنا إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه صلي الله عليه وسلم، وفرضنا المستحيل من إنقلاب طباعه المعروف بها قبل البعثة الي عكس ذلك تماما.**

**ويتجلي مزيد من صورة المفاجئة المخيفة لديه صلي الله عليه وسلم، في توهمه بأن هذا الذي رآه وغطّه وكلمه في الغار قد يكون آتياً من الجن، إذ قال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر :( لقد خشيت علي نفسي ) أي من الجان، ولكنها طمأنته بأنه ليس ممن يطولهم أذي الشياطين والجان لما فيه من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة.**

**وقد كان الله عز وجل قادراً علي أن يربط علي قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلمه ليس إلا جبريل : ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله الي الناس - ولكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الإنفصال التام بين شخصية محمد صلي الله عليه وسلم قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يطبخ في ذهن محمد صلي الله عليه وسلم مسبقا ولم يتصور الدعوة إليه سلفاً.**

**ثم إن ما ألهم الله به خديجة من الذهاب به صلي الله عليه وسلم إلي ورقة بن نوفل، وعرض عليه الأمر، تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذي فوجيء به عليه الصلاة والسلام إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد نزل علي الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه.**

**أما إنقطاع الوحي بعد ذلك، وتلبّثه ستة أشهر أو أكثر، علي الخلاف المعروف فيه، فينطوي علي مثل المعجزة الإلهية الرائعة، إذ في ذلك أبلغ الرد علي ما يفسر به محترفوا الغزو الفكري الوحي النبوي من أنه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمل والتكرار وأنه أمر داخلي منبعث من ذاته نفسها.**

**لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء مدة طويلة، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك، ثم يتحول القلق لديه الي خوف في نفسه أن يكون الله قد قلاه بعد أن أراد أن يشرفه بالوحي والرسالة، لسوء قد صدر منه، حتي لقد ضاقت الدنيا عليه وراحت تحدثه نفسه، كلما وصل الي ذروة جبل أن يلقي بنفسه منها ! الي أن رأي ذات يوم الملك الذي رآه في غار حراء، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول : يا محمد أنت رسول الله الي الناس، فعاد مرة أخري وقد إستبد به الخوف والرعب الي البيت، حيث نزل عليه قوله تعالي ( يا أيها المدثر قم فأنذر ).**

**إن هذه الحالة التي مر بها رسول الله صلي الله عليه وسلم، تجعل مجرد التفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً، ضرباً من الجنون، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمر إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال.**

**وإذاً فإن حديث بدء الوحي علي النحو الذي ورد في الحديث الثابت الصحيح، ينطوي علي تهديم كل ما يحاول المشككون تخييله الي الناس في أمر الوحي والنبوة التي أكرم اله بها نبيه محمد صلي الله عليه وسلم وإذا تبين لك ذلك أدركت مدي الحكمة الإلهية العظيمة في أن تكون بداءة الوحي علي النحو الذي أراده الله عز وجل.**

**وربما عاد بعد ذلك محترفوا التشكيك، يسألون : فلماذا كان ينزل عليه صلي الله عليه وسلم الوحي بعد ذلك وهو بين الكثير من أصحابه فلا يري الملك أحد منهم سواه ؟**

**والجواب أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن تري بالأبصار إذ أن وسيلة الإبصار فينا محدودة بحدّ معين، وإلا لاقتضي ذلك أن يصبح الشيء معدوما إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته، علي أن من اليسير علي الله جل جلاله - وهو الخالق لهذه العيون المبصرة -أن يزيد في قوة ما شاء منها فيري ما لا تراه العيون الأخري، يقول مالك بن نبي في هذا الصدد : ( إن عمي الألوان مثلا يقدم لنا حالة نموذجية، لايمكن أن تري فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون،وهناك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق البنفسجية لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون، فلقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية ).**

**ثم إن إستمرار الوحي بعد ذلك يحمل نفس الدلالة علي حقيقة الوحي وأنه ليس كما أراد المشككون : ظاهرة نفسية محضة، ونستطيع أن نجمل هذه اللالات فيما يلي :-**

**1- التمييز الواضح بين القرآن والحديث، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً، علي حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة له بالنبوة، بل لأن القرآن موحي به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عز وجل الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو صلي الله عليه وسلم.**

**2- كان النبي صلي الله عليه وسلم يسأل عن بعض الأمور، فلا يجيب عليها، وربما مر علي سكوته زمن طويل، حتي إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال، طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأن سؤاله. وربما تصرف الرسول في بعض الأمور علي وجه معين، فتنزل الآيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه، وربما إنطوت علي عتب أو لوم له صلي الله عليه وسلم.**

**3- كان رسول الله صلي الله عليه وسلم أميّاً.... وليس من الممكن أن يعلم الإنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية، كقصة يوسف.... وأم موسي حينما ألقت وليدها في اليم.... وقصة فرعون.... ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه صلي الله عليه وسلم أميّاً : ( وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ) العنكبوت 48.**

**4- إن صدق النبي صلي الله عليه وسلم اربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك، يستدعي أن يكون صلي الله عليه وسلم من قبل ذلك صادقاً مع نفسه، ولذا فلا بدّ أن يكون قد قضي في دراسته لظاهرة الوحي علي أي شك يخايل لعينه أو فكره.**

**وكأن هذه الآية جاءت رداً لدراسته الأولي لشأن نفسه مع الوحي: ( فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ) يونس 94**

**ولذا روي أن النبي صلي الله عليه وسلم قال بعد أن نزلت هذه الآية : لا أشك ولا أسأل.**